



### السبيل إلى شخصية متزنة راضية مطمئنة



الأربعاء 22 يونيو 2022 م 06:54

محمد عبد الرحمن صادق

إن العصر الذي نعيش فيه قد جمعت فيه كل مظاهر السعادة، وتتوفرت فيه كل وسائل الراحة.

إن الإنسان في عصرنا ما عليه إلا أن يضغط على زر ليشاهد العالم بين يديه بما فيه من علم وتقنيات في شتى مناحي الحياة، ويضغط على زر آخر ليتنقل من أقصى الأرض إلى أقصاها، ويضغط على ثالث لتقضى له من المصالح ما كانت تكلف الأجيال السابقة من المال والجهد والوقت ما يستنفذ طاقاتهم وأعمارهم.

وبالرغم من كل ما سبق نجد أن هذا العصر به من المشكلات والمفاسد ما يشتت الذهن، ويُحطّم النفس، ويرهق البدن، ويُطفئ البهجة، وينهي الأفئدة والمُقل، للحد الذي يجعلنا نترحم على عصر مضى كان الإنسان فيه هادئ النفس، مُشرح الصدر، صحيح البدن، راضٌ بما قسمه الله تعالى له، دون تكالب محموم ولا سعي في الشر مذموم.

إن الإنسان بما كسبت يداه هو الذي يجلب لنفسه كل هذا الشتات، وكل هذه الهموم والمفاسد، ويد الإنسان أن يتخلص من كل ذلك لو عرف من الدنيا حقيقتها، ومن نفسه غايتها، ومن البشر طباعهم.

أولاً: معرفة حقيقة الدنيا

إننا لن نجد وصفاً للدنيا وحقيقةها أفضل مما وصفها به الله تعالى في كتابه، ومما وصفها به النبي ﷺ في الأحاديث النبوية الشريفة.

قال تعالى واصفاً حقيقة الدنيا: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بتلكم وتكلّم في الأموال والأولاد كتمّل عيّن أحب الكفار ثباته ثم تهیج فتراه مُضطراً ثم يكون خطاً وفي الآخرة عذاب سديداً ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا مَنَع الغُرور} [الحديد: 20]

وأرشدنا الله تعالى إلى سبيل النجاة من الدنيا وشرورها فقال: {واضيّر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والغشية يربدون وجهه ولا تبعد عنك عيّنك عنهم تريّد زينة الحياة الدنيا ولا تُطع من أغفلنا قلبنا عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً} [الكهف: 28]

وَحَذَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَغْبَةِ الرَّكُونِ لِلْدُنْيَا فَقَالَ: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِسَّاهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسِّونَ} [١٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَجْرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِبْطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَتَاطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥-١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي قال: "أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَّهُ وَعَالَمُ، أَوْ مَتَلَمْ" (سنن الترمذى).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنَّ النبي قال: "لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدُلُ عَنْ اللَّهِ جَنَاحَ بَعْوضِهِ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرِبَةً مَاءً" (سنن الترمذى).

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: "دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَرَ فِي جَنِيَّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنْجَدْتَ فَرَاسًا أَوْتَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: (يَا عُمَرُ مَا لِي وَلِلْدُنْيَا وَمَا لِلْدُنْيَا وَلِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيْدِهِ مَا مَتَّلِي وَمَتَّلَ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٌ سَارُ فِي يَوْمٍ صَافِي فَاسْتَظَلَّتْ تَحْتَ شَجَرَةً سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)" (صحيح ابن حبان).

\*فَرَاسًا أَوْتَرَ مِنْ هَذَا: الفراش الوثير هو اللين المريح.

ثانيًا: معرفة حقيقة النفس وغايتها من الدنيا

إن المسلم الذي يحرص على مكانته عند ربه ما تراه إلا تقىً ورعاً، يرضى من الدنيا بما يبلغه المسير، ومهما حاز من الدنيا جعلها في يده ولم يجعل لها في قلبه حطاً ولا نصباً.

إن المسلم الذي يعرف حقيقة النفس ويعرف غايتها من الدنيا يستوي عنده تبرها وترابها.

#### -١-حقيقة النفس

إن كلمة النفس لها تعريفات مختلفة، وكل تعريف يكون حسب نظرية صاحب التعريف للكلمة، فمنهم من قال إن النفس هي الروح، ومنهم من قال إنها حقيقة الشيء وحملته، ... إلى غير ذلك من التعريفات.

جاء في كتاب "التعريفات" للجرجاني أنه قال: "النفس هي الجوهر البخاري اللطيف، الحامل لقوه الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماتها الحكيم: الروح الحيوانية، فهو جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع صوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم، فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه" أهـ.

أما في القرآن الكريم فقد وردت كلمة النفس ومشتقاتها في عشرات المواقع، ووردت بمعانٍ عديدة تشير في جملتها إلى أن الإنسان قد خلقه الله تعالى وسوأه ليكون خليفة في أرضه، وكلفه بتكليفات يؤديها ونهاه عن منهيات يحتسبها، والهدف من كل ذلك هو إعمار الأرض والاستعداد للأمثل لما بعد الموت، رغبة في الثواب ورهبة من العقاب.

مما سبق يمكننا القول أن النفس هي هذا المخلوق الذي جعله الله تعالى منوطاً بالتكليف داخل الإنسان البالغ العاقل.

ومنوطاً بترجمة هذا التكليف إلى أقوال وأفعال وسلوكيات في المجتمع الذي يعيش فيه.

ومنوطاً بالمتول بين يدي الله تعالى يوم العرض عليه للحساب.

وعلى النفس يقع الجزاء بما قدمت في الدنيا.

قال تعالى: {الَّيْوَمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا طُلْمَ الَّيْوَمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [غافر: ١٧]

#### -٢-غاية النفس من الدنيا

إن غاية النفس السُّلوبية من الدنيا هي طاعة الله تعالى، وبلغو رضاه ومحبته، ولا يشغل النفس من الدنيا سوى ما يبلغها غايتها.

قال الشيخ الألباني رحمه الله: "يغريك عن الدنيا مصحف شريف، وبيت لطيف، وكوب ماء ورغيف، وثوب نظيف، العزلة مملكة الأفكار، والدواء في صيدلية الأذكار، وإذا أصبحت طائعاً لربك، وغناك في قلبك، وأنت آمن في سربك، راضٍ بكسبك، فقد حصلت على السعادة، وبلغت الزيادة، وبلغت السيادة، واعلم أن الدنيا خداع، لا تساوي هم ساعة، فاجعلها لربك سعيًا وطاعة.

أتحزن لأجل دنيا فانية؟! أنسنت الجنان ذات القطوف الدانية؟! أتبكي والله ربك! أتبكي والله حسبي! الحزن يرحل بسجدة والبهجة تأتي بدعوة... العافية إذا دامت جهلت، وإذا فقدت غرفت، فاشكروا الله دائمًا فالجلوس بعد السلام من الصلاة المكتوبة من أعظم الأوقات التي تنزل فيها رحمة الله عز وجل لا تستعجل بالقيام. استغفر، وسبح واقرأ آية الكرسي لا تننس بأنك في ضيافة الرحمن عز وجل. (فإِذَا فَرَغْتَ فَانصُبْ {7} إِلَى رِّبِّكَ فَازْغَبْ {8}) أهـ.

### ثالثاً: معرفة البشر وطبعاتهم

إن التكوين الجسماني للخلق واحد والوظائف البيولوجية للخلق واحدة، مهما تغيرت شعوبهم وقبائلهم ومهمها تغيرت أنواعهم ومعتقداتهم، وهذا هو العدل الرباني المطلقاً، غير أن طبائع الخلق تتغير وفطرتهم تختلف حسب ميل الإنسان وطموحه وما تسلكه له نفسه، وحسب ما يعتريه من خصال يكتسبها من المحظيين به، فإن كانت خيراً فخيراً، وإن كانت شراً فشراً.

عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: "ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَرَوِيُّ عَنْ رَّبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِيْ كُنْفَاءَ وَأَنَّهُمْ أَتَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالُهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتُ لَهُمْ، وَأَمْرَتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا" (آخرجه الألباني في غاية المرام بإسناد صحيح).

\***كُنْفَاءَ:** أي بعيدين عن الباطل متمسكين بالدين الحق. اخْتَارَ الدِّينَ الْحَبِيبَ: الإسلام، أَيْ اخْتَارَ كُلَّ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ وَصَحِيحٌ لَا عَوْجَ فِيهِ.

\***فَاجْتَالُهُمْ** عن دينهم: اجتال الشيطان فلاناً: استحقّه فحال معه في الضلال.

من الحديث ندرك أن طبائع البشر قد ورّعها الله تعالى عليهم كما ورّع عليهم أرذافهم بتقدير منه سبحانه ولحكمة يريدها، وأن طغيان طباع على أخرى داخل الإنسان إنما يكون نتيجة لاحتلال المواريث الكامنة في وجдан هذا الإنسان.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "يَا مَعْسَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ آتِكُمْ صُلَّاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، أَلَمْ آتِكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللَّهُ بِي، أَلَمْ آتِكُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قَلُوبِكُمْ بِي؟ قَالُوا: بَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا تَقُولُونَ: حِنْتَنَا خائِفًا فَآمَنَّاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَمَحْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ؟ فَقَالُوا: بَلْ لِلَّهِ الْمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، وَلِرَسُولِهِ" (تخریج المسند بإسناد صحيح على شرط الشیخین).

نرى في الحديث قوله ﷺ (صُلَّاً - مُتَفَرِّقِينَ - أَعْدَاءً) فـ الطباع كانت مختلفة ومتنايرة ولكن عندما لمس الإيمان شعاف القلوب، وأنارت العقيدة طلام العقول، اهتدت النفوس وتوحدت الطباع وتحابت القلوب.

إن طبع الإنسان لا يضبطه إلا عقل راجح، وحكمة بالغة، وعقيدة راسخة تحرس ضميره وتصبّطه وتوجهه، والمجتمعات في هذا الشأن مثلها مثل الأفراد.

إذا كانت هذه هي حقيقة طباع البشر فعلى العاقل الفطن والذكي الأريب أن يُعمّل عقله وينحيه اختيار من يخالطهم لأنه كما جاء في الحديث الشريف: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالطه" (آخرجه أبو داود، والترمذى، وأحمد).

وأخيراً أقول:

إن من عرف من الدنيا حقيقتها، ومن نفسه غايتها، ومن البشر طباعهم، حق له أن يعيش هادئ النفس، مطمئن القلب، نقى السريرة، مستقر الحال، مُقبل على ربه، مُدبر عن كل ما يحرمه مما هداه ربه إليه، فاستحق من ربـه الهدـية والتوفـيق والسدـاد والرشـاد في الدنيا والآخرـة.

المصدر: بصائر

